عبد الله غانم في كتاب «الحضارة الأدبيَّة»
الأدب والشِّعر وتجديدهما

أديب متنوِّع الانتاج

صدرت، مؤخَّراً، مؤلَّفات الأديب والمفكِّر اللبناني عبد الله غانم الكاملة، وهي ثلاثة مجلَّدات، يضمُّ الأوَّل منها النُّصوص الشعريَّة، ويضمُّ الثاني والثالث الكتابات النثريَّة، وهذه تتنوَّع بين مقالات في الأدب واللغة والتاريخ والأساطير، والنُّصوص القصصيَّة.

الأديب، كما يبدو، متنوِّع الانتاج الأدبي، غزيره. في هذه القراءة القصيرة، سوف نتناول آراءه النظريَّة في «الأدب» التي قدَّمها في كتاب «الحضارة الأدبيَّة»، وذلك لأهميَّة هذه الآراء التي قدِّمت في مرحلةٍ (العقد الخامس من هذا القرن) كان الجدل فيها يتركَّز على قضايا أثيرت في عصر النهضة، ولا تزال موضوع جدل حتى الآن. ومن هذه القضايا أهميَّة الأدب ووظيفته ومفهومه، وعمليَّة الإبداع والتَّجديد، وما تثيره هاتان القضيَّتان من مسائل تتعلَّق بالصِّلة بالتُّراث والآخر...

شعريَّة اللغة

ما يلفت، بداية، في مؤلَّفات عبد الله غانم النثريَّة، وخصوصاً كتاب «الحضارة الأدبيَّة»، جمال لغة الأديب وشعريتها. ففضلاً عن أناقة اللفظة ودقَّتها ورشاقة العبارة، نلحظ غنى اللغة بالصُّور المشعَّة بالألوان والإيحاءات، الناطقة برؤية عميقة تتأمَّل الظاهرة وتنفذ إلى الجوهر فيها، وتلتقطه... وتبسطه صورة محسوسة. نقرأ على سبيل المثال، من مقالة «الأدب يلفُّ الجميع»: «... تميلون

إلى أن تمقتوا الضَّوء الذي يحرق الزَّيت، وهو منه، والفتيلة، وهي طريقه إلى العيون، وإلى أن تمقتوا الفجر الأبيض الذي يعيِّر الليل بعتمته والنار الحمراء التي تعيِّر الفحمة بسوادها، وإنَّما بياض الفجر وحمرة النار من مواليد تلك العتمة وذلك السواد» (ص. ١٦).

عظمة الأدب

يستخدم عبد الله غانم هذه اللغة الفنيَّة، وهو يبسط رؤيته إلى قضايا الأدب. وقد يكون من المهم أن نلاحظ دلالة تسمية كتابه «الحضارة الأدبية»، إذ إنَّ هذه التسمية تشير إلى الكل الحضاريّ، وإلى الأدب بوصفه تجليّاً من تجلياته، وهو الأهم؛ ذلك أنَّ عظمة الأمَّة تقاس، كما يقول غانم، بمقياس أدبائها، ويستشهد في هذا الصدد بقولين، أوَّلهما لشاعر عربي يقول:

وما وهب الله لأمرئ من هبةٍ أفضل من عقله ومن أدبه

وثانيهما لحكيم، يقول: «أيُّ شيء أدرك من فاته الأدب. وأي شيءٍ فات من أدرك الأدب». ويرى مع الإمام علي (عليه السَّلام): «كلُّ شيءٍ ينقص بالإنفاق ما عدا الأدب فإنَّه يزيد...».

إنَّ الأدب، وفق هذا الفهم، قنديل يضيء عتمات التاريخ، أو إنَّه ذلك الشيء الجميل الذي يمنح التاريخ صفته الإنسانيَّة، فالمؤلِّف يتساءل: «أيُّ شيء حواه تاريخ هذه الأرض إلَّا تخليده السَّاكنينا».

ويقرِّر أنَّ حروف الأدب، وهي لهاث الصدور ودمعات العيون وأنَّات الحناجر، تكتب إنسانيَّة الإنسان، أو كما يقول بلغته الشعريَّة: «الأدب في الحقيقة، تلك المياه التي تسقي سفوح الجبال فتخضرّ، وذلك الزيت الذي يحترق في قنديلها فيضيء، وذلك التراب الذي تمتصُّ منه الحياة الاجتماعيَّة لوازمها ومقوِّماتها (ص. ١٧).

بؤس حرفة الأدب

إنَّ مهمَّة الأدب المتمثِّلة بإضاءة سياق الحضارة الإنسانيَّة وبعث الاخضرار

فيه، تجعل للحسن في الأدب مقياساً هو، كما يقول المؤلِّف: »فما أحسنه قلماً لا يكتب إلَّا المغفرة، ولساناً لا ينطق بغير المحبَّة. والمغفرة والمحبَّة هما السَّلام والطمأنينة» (ص. ٢٤).

وإن يكن الأديب يجود على الحياة، فإنَّ الحياة لا تجود عليه سوى بالبؤس. فقديماً قيل: «أدركته حرفة الأدب». وحديثاً يقول عبد الله غانم: «الأدباء مساكين الحياة بالنَّظر إلى المادَّة»، و«إنَّهم بائسون في مقاييس المادَّة» (ص. ١٨ و٢٢). وهم سعداء بذلك، وسعادتهم تنجم عن قدرتهم على إسعاد الآخرين، كأنَّهم تلك الزهرة الباسمة التي تتهافت عليها أسراب النحل.

مفهوما الأدب والشِّعر

الأدب الناهض بأداء هذه المهمَّة يبقى عصيَّاً على التحديد الصَّرف (ص. ٢١) كما يقول المؤلِّف، غير أنَّنا نستطيع إن أمعنَّا النظر في مؤلَّفه، صياغة تعريف يقول: إنَّ الأدب شعلة تخرج من الصدور لتتشكَّل صورة تشعُّ ألواناً وألحاناً، وتخلق في الذَّات أحاسيس ومشاعر ورؤى...

إن أردنا تصنيف مثل هذا التحديد غير الصَّرف، فإنَّنا نقول: إنَّه منتمٍ إلى التأثريَّة، ويندرج، في هذا السياق، مفهوم المؤلِّف للشاعر والشعر. فـ «الإنسان إمَّا أن يكون شاعراً وإمَّا أن لا يكون...». وعلى المتلقي «ألَّا يتسرَّع بأن يسمِّي شاعراً من يصفُّ كلماتٍ ـ موزونة كانت ومقفَّاة أو غير موزونة ولا مقفَّاة ـ إذا لم ترتعش حين لم تقرأه، إذا لم تشعر الرعشة» (ص. ٩٧). ولعلَّنا نستطيع القول:

شعلة الوجد المتشكِّلة لغة هي النَّص الأدبي الشِّعريُّ، ما يعني أنَّ القدرة على بعث الشعور هي مقياس شعرية النَّص. هل يتَّفق هذا التعريف مع تعريفٍ طالما ردَّده التأثريون، وهو: الشِّعر فيضان المشاعر القويَّة من تلقاء ذاتها؟

نجد، بين تعريف غانم، وتعريف التأثريين، عناصر مشتركة تتمثَّل بالشُّعلة/الفيضان التلقائي، ونجد فروقات تتمثَّل في نصِّ غانم على العنصر اللغوي الفنِّي... وأيَّاً يكن الأمر فإنَّ المؤلِّف، كما التعريف التأثري، يرى أنَّ

الشِّعر يكون عندما تترك للشَّاعر حرِّية الإبداع...

المنظوم والمنثور

في ضوء هذا الفهم، يبحث قضية التجديد في الشِّعر العربي، فيقول، في ما يتعلَّق بمسألة الوزن والقافيَّة، وهي مربط الفرس: «يترك الشاعر حرَّاً. إذا شاء قفَّى ووزن، وإذا شاء تصرَّف وتحرَّر، على أن يسمِّي النَّوع الأوَّل من شعره منظوماً، والثاني منثوراً، وعلى أن يكون شاعراً في الحالتين لا تنقص شاعريته ذرَّة، هذا هو الحل الوحيد للمشكلة».

ويضيف مميِّزاً بين النوعين فيقول: «أمَّا أن يسمَّى النوعان منظومين، فذلك خطأ محض، لأنَّ النظم فن، وللفن قواعد، ومن قواعده التناسب. والتناسب ليس وليد الصناعة، بل هو طبيعي من ذات الوجود» (ص. ٩٣).

ولهذا يكون «أجدر بجميع الذين يسعون للتحرُّر من الوزن والقافية ـ من الوزن خصوصاً، وهو النِّعمة التي أسبغها الله على العربية من دون غيرها ـ الأجدر أن ينسجوا على منوال الشِّعر المنثور، فيستريحون ويريحون. هذا هو ذوقي الخاص (كمجدِّد) لا كمحافظ...» (ص. ١٠٣).

التجديد الشعري

إن يكن الأمر على هذا النحو، فإنَّ قضيَّة التَّجديد تتجاوز مسألة الوزن والقافية والنَّظم الملتزم قواعد يُعدُّ إتقانها فنّاً ذا طبيعة خاصة، إلى قضية الإبداع نفسه بما تثيره من مسائل عديدة قد يكون من أهمِّها، تجربة الإبداع الشخصيَّة، مصدر الإبداع وعمليته، وطبيعة حضور التراث والآخر في هذه العمليَّة.

يعود عبد الله غانم، في الكلام على هذه المسائل، إلى التراث العربي، فيقف، في ما يتعلَّق بطبيعة التجربة الأدبيَّة عند قول الشَّاعر:

لا يعرف الشوق إلَّا من يكابده ولا الصَّبابة إلَّا من يعانيها

ويرى أنَّ كلمة الإبداع تزحل عن قلب المبدع لتجسِّد الفكرة النابتة في خدر نفسه وأعماقها، فمن ذلك الرَّحم تولد الصُّورة الجديدة واللحن الجديد

(ص. ١٢). وهذا لا يتمُّ إلَّا لأولئك الذين يقلِّبون تراب الأيام بمعاولهم (أقلامهم)، فيعطيهم ذلك التراب الغلَّة...» (ص. ١١).

والغلَّة إنتاج شخصي في المقام الأوَّل، إذ ليس من أديب مبدع... لو لم تكن له خصوصيَّة خلقتها فيه البيئة التي يغاديها ويعاشيها... فما هي قيمة الكلمة التي يكتبها الكاتبون إن لم يكن الزمان روحها والمكان جسدها (ص. ٢٧).

هذه الغلَّة تنبثق من تربةٍ لن يكون يومها إلَّا ابن أمسها. وهكذا يكون الجديد منبثقاً من قلب القديم. وإذا كان القديم بذرة، فالجديد نبتة تنبثق من قلبها، ليتجلَّى فيها سرُّ الاستمرار والخلود.

الأنا والآخر

ليس هذا، كما يرى غانم، تعصُّباً للإقليم ـ البيئة أو دعوة إلى ذلك، إذ إنَّه لا مندوحة للأديب من أن يقرأ الآخر، ومن أن يتأثَّر بذلك الآخر. ولكن هناك فرق بين التأثُّر والسرقة، فواخجلتنا من المستشرقين الذين يعنون بترجمتنا إذا وجدوا أنَّ مثلنا كمثل النواطير الذين يهدون الكرَّام زنبيلاً من عناقيد كرمته، فهديتهم عار وفضيحة (ص. ٤٣).

هذا هو شأن بعض دعاة التجديد الذين ينسجون على منوال الآخر، فيقول لهم، عندما يرى بضاعته بين أيديهم، بسخرية: هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا. إنَّ هؤلاء لا يبنون بيوتاً تخصُّهم ولا ينسجون ثياباً تخصُّهم، وإنَّما يسكنون بيوتاً غير بيوتهم، ويرتدون ثياباً غير ثيابهم، وقديماً قيل: «الثوب المستعار لا يدفئ»، وإن كان صاحبه ثريَّاً، ولعلَّه من المفيد هنا الإشارة إلى أولئك الذين يحسُّون بالضِّعة إزاء الغرب وتذكيرهم بقول عبد الله غانم: «أجل! فأنت متى وجدت أسطورة من أساطير الغرب تدور على الحكمة فلن تكون إلَّا مقتبسة...» (ص. ٥١).

نوعا المجدِّدين

ويكون من الطبيعي أن يصنِّف عبد الله غانم المجدِّدين في نوعين هما:

١.أصحاب طريقة يمشون بثقافتهم الملوَّنة المستوردة على طريق حضارية، مستفتحين بتغيير الأشكال اللفظية والبنائيَّة، ثائرين على الوزن والتقفية. أولئك قادة مغامرون ليمشينَّ وراءهم أجناد وتابعون، فلا تلومهم في محاولتهم، لكنَّنا نشبعهم لوماً يوم يكتفون بأن يحسبوا الشعر العربي فستاناً تُضع تصاميمه، في باريس، معارض جاك بريفير وسان جان بيرس، وفي لندن مشاغل ت. س. أليوت، وفي نيويورك مصانع عزرا باوند.

٢.أصحاب طريقة أخرى يلازمون دربهم فيمهِّدون عقباتها، وشجرتهم فيقلِّمون يبوستها، ويلقِّحونها بلقاحٍ حضاري جديد، فتثمر ثمراتٍ لكلٍّ منها مذاق... (ص. ٨٨ و٨٩).

ولئن تابع شعراء هذه الطريقة هدفهم ليصلنَّ إلى إبداع الجديد، وهذا هو بيت القصيد.

❐❐❐